المشرق

المرحوم
الاب لويس شيخو اليسوعي

ذكرى

مات الاب شيخو! مات مؤسس مجلة المشرق وصاحب امتيازها! سطرت يده الكلمة الاخيرة من المجلد الستوي الذي تمّ به غرس المجلة الفتي وما وضع القلم الا وافاه الملاك مطالباً بالوديعة فاعادها لربه طاهرة غنية باعمال صالحة لا تحصى

فارقنا ابونا المحبوب، واخونا الاكبر، القيم الساهر بنصائحه وامثاله وعطفه على اخوته. فارقنا، ورحابة صدره، وسعة معارفه، وسمو فضائله مورد تستقي منهُ النفوس كلما عطشت، وترتوي

انحجب ذلك المصباح المنير فاستوحشنا، وفزعنا من الظلمة الى الله وبكينا. ولم نكن وحدنا نبكي لان ضياءه كان يشع من الكلية اليسوعية الى اقصى ما ينتهي اليهِ نفوذ اللغة العربية، فيستضيء بهِ كل ناطق بالضاد من صغير حديث السن يتعلم القراءة في «مجاني الادب» الى مستشرق كبير وعالم خبير يترقب ظهور مجلة «المشرق» ليقف منها على حياة الشرق وتطوراتها

كان الفقيد وزيناً ، وقوراً ، متواضعاً ، على محياه امارات الذكاء والتفكير وقد زاده المشيب جلالاً ، يدخل عليه الزوار في المكتبة الشرقية فيجدونه في زاويتها منحني الرأس على الاوراق والكتب فتعروهم الهيبة الى ان يرفع بصره اليهم فيشاهدهم ، فيقوم ويرحب بهم وينسى دونهم كل شغل شاغل ، فيتحدث اليهم ويؤانسهم ويزورهم المكاتب ويكشف لهم عن كنوز المخطوطات فيندهشون وهم لا يدرون اي الامرين احق باعجابهم : نبوغ العالم او تواضع الراهب ودعته

يقصدونه من البلاد البعيدة حيناً ومن بيروت احايين : دخل عليه مرّة رجل جاءه من بلاد المغرب وقال : ابت اشكر الله لاني حظيت بمشاهدتك . لي اربع عشرة سنة والنفس تحدثني بالقدوم اليك لامتع النظر برآك

وقد ذاع صيته وانتشر حيث انتشرت مؤلفاته وذكر صفاته ونبوغه فلا عجب ان تصدعت لنعيه القلوب انيناً واسفاً فتواردت البرقيات والتحاريز الى الكلية اليسوعية مؤاساة وتعزية ، وتحركت العاصمة اللبنانية برجالها وممثليها لتقف في مأتمه وقفة الوطن المودع اعز ابنائه . وبينما كان الاساقفة وموظفو الحكومة ومندوبوها واعيان الادب وعلية القوم شاخصين خاشعين متأثرين تقدم رئيس الوزارة ووضع نيشان « الاستحقاق اللبناني » على نعش الاب شيخو فرسم الحرير الاحمر خطاً دموياً على بطرشيل الكاهن اليسوعي المتشح على التابوت رمزاً لحياة قضت في خدمة البلاد ورفع منار اللغة العربية الشريفة

ولم تنته اذ ذاك مظاهر الاجلال نحو الفقيد الكريم لان الصحافة تناولت حياته وظلت اياماً تتحدث الى قرائها بذكرى صفاته واعماله . ظلت اياماً تذيع ذكرى حياته وفضائله وتندب معنا الرجل الذي لقبه راي الخاصة والعامة : بالعلّامة العربي

ولا مغالاة في اللقب . ومؤلفاته العديدة وخدمه التي لا تقدر تشهد بعلم فريد ومنافع جمة حسبنا التنويه بها اليوم

على انّنا رأينا ان نتقدّم الى القراء الكرام والى كل من شاطرنا الاسى بنبذة من حياة الفقيد فنعرض بالايجاز الى سرد اهمّ تطوراتها

* * *

لويس شيخو (رزقالله قبل دخوله الرهبنة) ابصر النور في مدينة ماردين في ٥ شباط ١٨٥٩ وكان من اسرة عريقة بالقدم لقب احد جدودها بالشيخ لنفوذه وكرمه واطلق عليها اللقب مع اضافة حرف الواو طبقاً لهجة البلاد المتفوق فيها العنصر السرياني الكلداني

كان ابوا الاب شيخو مسيحيين فاضلين متمسكين بالايمان تمسك الاولين باعز واغلى ما ورثوه من الاباء. وكانت اواصر القرابة تصل دمهم بدم الشهداء فان خال الاب شيخو الاب جبرائيل دنبو اسس رهبانية في الموصل وقتل على يد الاكراد عام ١٨٣٢ . سافر ابوه الى القدس وزار الاماكن المقدسة وعاد فلقبوه بالمقدسي . ورحل اخوه الاكبر استانسلاوس الى مدرسة غزير فتلقن فيها العلوم ثم دخل في سلك الرهبانيَّة اليسوعيَّة وهناك وافاه اخوه لويس ولهُ من العمر ثماني سنوات وامه بصحبته ، قطعت القوافل بين ماردين والقدس لتزور قبر المسيح (وما كان اصعب الاسفار في تلك الايام) وعرجت على غزير تزور ابنها اليسوعي . ولم يشاهد لويس الصغير اخاه استانسلاوس الا علق باهدابه وطلب من امه ان تتركه في المدرسة

فتسلمتهُ المدرسة الاكليريكية من يد الوالدة غضاً نضيرًا وغرستهُ في ارضها الطيبة فنمى واينع وازهر مبتسماً لشمس محبة الله والعلوم الدينيَّة والعلمانيَّة . فعقدت ثماره وجاءت في حينها جميلة لذيذة : اجتهاداً وتقوى وطاعةً ونجاحاً . الى ان اتم دروسهُ فسمع صوت الله يدعوه الى الرهبانيَّة اليسوعية فما كانت اشهر الا رجع واخاه الى ماردين فزار الاهلين وعاد الى بيروت ومنها ركب البحر الى فرنسة حيث اقام ثلاث سنوات في « الابتداء » الرهباني اولًا ثم في مراجعة الآداب اليونانيَّة واللاتينية والافرنسيَّة ثم رجع الى الشرق

وكانت مدرسة غزير قد انتقلت الى بيروت وفتحت الكليَّة اليسوعيَّة ابوابها للطلاب . وكانت النهضة العربية بمستهلها الاوَّل . والكتب عزيزة نادرة والمطابع العربية تُعد على الاصابع وهي في نشأتها

قضى الاب لويس شيخو سنين عديدة قبل ان يرتقي درجات الكهنوت تارة تلميذاً في معاهد الفلسفة واللاهوت وتارةً استاذاً للغة العربية في الكليَّة .

فعلم فيها سحابة ثماني سنوات مبادئ الصرف والنحو والبيان والخطابة متدرّجاً من صف الى صف ، متحققاً بذاته حاذة الدروس العربيـة ، مختبراً اساليبها ، مكتشفاً اسباب انحطاطها ، شاحذاً الهمة في سبيل نهضتها

فبلغ منهُ فكره الثاقب ونظره البعيد المرمى الى وضع برنامج واسع قضى خمسين سنة من حياته في تنميه فصار آلة في يد العناية الربانيـة لتهذيب اللغة العربيّة «وتنصيرهـا» لتصلح لتثقيف الناشئة فيتهافت عليها الطلاب ولا يجدون فيها الّا كل مؤلف اديب وكتاب يرقى بهم تدريجاً الى مستوى تلامذة المدارس الثانوية في اوروبا

فاندفع بهمتـه الشماء وعرض امره على الرؤساء فوجـد فيهم كل تشجيع وتسهيل مادي ومعنوي لتنميم المشروع الذي ارتسمه لـذاته فقام وقعد وسافر وجـاب البلاد وتنقل بين الشرق والغرب وجمع مخطوطاته الشهيرة واكتنز في ذاكرته ومذكراته ومكتبته مـا شاء الله ان يكتنز واخـذ ينشر مؤلفاته ومخطوطاته فكانت همته من العوامل العظمى التي رقيت بالمطبعة الكاثوليكية الى ما بلغته من سمعة واتقان ورواج

تذرع بما وجده فيها من الوسائل الفعّالة لبلوغ مأربه الشريف فالف الكتب المدرسية وابرزها ورفع لواء اللغة ونشره الى اربعة ارباع المسكونة . وناهيك ما اثاره من منافسة وحماسة في نفوس الادباء فاجتهدوا ان يتسابقوا واياه في مضمار احياء اللغة واستنباط كنوز آدابها فنالت العلوم العربيـة بفضلهم رقياً نتمتع بهِ اليوم ونفاخر انا نحن مدينون بهِ اليهم

لم يكن الاب شيخو لغوياً فحسب لان فيـهِ تجلّت صفات الكاهن رجل الله واللاهوتي والفيلسوف والمجـادل والتاريخي بمجالي باهرة تلفت الانظار وتستوقف الخواطر لكن المجال ضيق فلا نعرض لها اليوم الا اننا نقف والقارئ وقفة اخيرة شاخصين الى نعشه فنحييه تحيّة الوداع مع الامل باللقاء . ونشكر ابا الانوار لانه منّ على الرهبانيّة اليسوعيّة بهذا الراهب نبراس الفضيلة والعلم ونسألهُ ان يسبغ عليهِ ثوابهِ رحمتـه ورضوانه ويهبنا ان نقتفي آثاره في خدمة الله والوطن انهُ السميع المجيب !